

السَّرقة عِنْدَ الأَطْفال

للسيدة زاهية مرزوق

قام مرة أجد المدرسين بالمدارس الابتدائية . بحركة يشكر عليها ، وهي تمويد الأولاد الاقتصاد ، وخصوصا من مصروفهم الخاص ، ووضع الأساس لهذه الحركة ، على المنافسة بين تلاميذ فصلا ، فتحث الفكرة وقامت المنافسة بشدة بينهم ، كل ولد يحاول أن يكون في أول القائمة ، وكان محمد الوحيد الذي لم يتحرك اسمه مرة واحدة من آخر القائمة ، وقد كان ذلك عظيما على آتئسه خصوصا أنه يريد إشعار مدرسه بأنه من أفراد الفصل الحريصين على إرضائه ، ولم يستغف ما بين يديه للظهور بهذا المظهر ، فبدأ يسرق من المنزل بعض النقود ، ويضعها في صندوق توفيره ، وأصبح اسمه بذلك يتدرج في القائمة حتى صار في أعلاها ، وزاده إمعانا في حطته رضاء المدرس عنه وشعوره بالفخر والتفوق على أقرانه ، وازدادت قيمة النقود المسروقة ، حتى أنارت شبهة المدرس به فبحث الموضوع ، واتصل بالأسرة فافتضح أمر التهميد المسكين ، وهكذا انتهت الغاية إلى ضدها ، ونتج التحمس للفضيلة رذيلة من أقيح الرذائل ، وأخطرها أنرا في الأخلاق ، ولو أن الاقتصاد في حد ذاته فضيلة يجب عرسها في عرس الأطفال ، إلا أنها إذا زادت عن حد الاعتدال ، أو إذا انحرفت طريقة الوصول إليها ربما أدت إلى مثل ما حدث في حالة الطفل محمد .

وربما كانت رغبة الطفل في إرضاء والده أو والدته ، سببا في تدرجه على السرقة ، وذئث كما حدث في حالة الطفل "ب" الذي بدفع بحبه لوأدته إلى إتيانها أنه وحد عملا بسيطا في فراغه اليومي بعد المدرسة ، وكان يأتي في ميعاد محدد في كل ليلة كي يوهبها بصدقه ، وأتى في نهاية الأسبوع ، فأعطى وادته ما كتسبه من هذا العمل "بموجوم ، ولكن سرعان ما عرفت الأم أن ما أعطاه لها ولدها ، ما هو مسروق من نقودها الخاصة ، وبعد البحث في هذه الحالة ، حضر أن لدافع للطفل عن إتيان هذا العمل ، إنما كان حيا في تقليده لوأده في حلب المسائل لأمه .

وإذا ما وجدت الأم نفسها أمام أمر واقع بأن نشذ بطفلها السرقة في شيء ما بقصد أو بغير قصد ، فإنه يجب عينا أن تشدد في رد ذلك الشيء إلى أصحابه مع تقديم الاعتذار الكافي عن هذه الخطوة ، ويجب على صاحب الشيء ألا يهون على الطفل فعلته . بأن يقول له مثلا "معتش خذها المره دي" بل يجب عليه أن يساعده في توجيهه وتأييده غير ناظر في ذلك إلى صداقته لوأديه أو قرابته لها ، أما إذا كان المسروق نقودا أو ما يكشف أمرها إلا بعد

صرفه ، فيجب أن يرد قيمتها من مصروفه اليومي الخاص ، ولكن على دفعات بسيطة
يكلا يشعر الطنن بوطأة الحرمان ، فيضطره الضغط إلى سرقات أخرى يسد بها حاجاته
ويحفظ بها مركزه أمام رفاقه ، وقد حدث في حالة "طفل م" الذي حرم دفعة واحدة من
كل مصروفه كي يكفر عن سرقة ارتكبها ، حدث أن صطر في أول الأمر إلى التشكيك من
بائع الحلوى ، ثم إلى التشكيك من رفاقه ، ثم إلى استحداثهم جميعا ، ولم طبل به الحذر ،
اضطر إلى متييده بالسرقة إلى ممتلكات ، قرنه . فكان يسرق كل ما يجده في أدراجهم
وملابسهم ، كي يستديونه أولا ، ثم يشبع رغباته ثانيا ، وظل على هذه الحال إلى أن
تتهت المدرسة إلى أمره وفطن الوالدان إلى خطئهما ، ولكن لم يرجع الطفل إلى حالته
الطبيعية ، إلا بعد أن بذل في سبيله مجهود شاق كان الجميع في غنى عنه .

ومن الآباء من يجد لذة في زيادة ثمن الأشياء التي يشتريها . فيقول مثلا إنه اشترى متر
القماش بخمسين قرشا ، والحقيقة أن ثمنه ثلاثون قرشا فقط ، وذلك إما حيا في الافتحار أو تعظيما
لقيمة الشيء في نظر أهل المنزل ، كي يزيد تقديرهم له والمحافظة عليه ، يرى الطفل ذلك من
أبيه فيدفعه حب التقييد إلى المغالاة في ثمن الأشياء ، فعندما ترسله أمه لشراء شيء بعشرة
مليات ، يعود لها وقد زد الثمن إلى خمسة عشر ميا . ولكن أين تذهب هذه الملييات الخمسة ؟
بالطبع تذهب إلى جيبه الخاص ، وإن كان أمينا فسرعان ما يجعلها تحميلا في نفسه
فيعتبرها "أجرة المشوار" وهكذا يبدأ الطفل أوى خطواته في السرقة وتكذب في آن واحد
فيجب على الأم أن تدقق مع طفلها في مثل هذه الأمور ، ولكن بطريقة لا تشعره بهدم
الثقة أو لشك في أقواله .

وقد يضطر الطفل إلى السرقة مجارة للوسط الذي يعيش فيه . وحفظا لمركزه بين أقرانه
وذلك كما حصل للفتة "ل" التي كانت تسرق من ولديها ، ناديل واشريات ثمينة لتلبسها
في المدرسة ، مثل صديقاتها ، فتيات ، وقد وصل بها الحال إلى سرقة لنقود ، كي تحوز بين
في الصرف والسعد . وعند ما كشف أمرها أشارت لعيدة لسيكولوجية بنقلها من هذه
المدرسة إلى مدرسة أخرى ، تتشى مع مستواها المادي ، وفلا كان ذلك هو العلاج
الوحيد لإصلاح هذه الفتاة .

وغريزة حب لاقتناء والادخار إذ لم تهدب في الطفل تهديبا صائحا ، ربما دفعته
إلى اسرقة ، فقد كان لطفل "ص" ميلا إلى اقتناء الألوان . فكان يضطره ذلك إلى أخذ
جميع الأقلام منقوية وصناديق الألوان ، وصور الملونة والكتب والمجلات منصورا ، فكان
يقصل منها لصور ويأخذها ليخفيها ضمن مجموعته الملونة . ووصل به الحال إلى سرقة الصور
من كتب المدرس نفسه ، وإلى فصلها من خرائط الفصل . وكثير من الأطفال يصل بهم

هذه الغريزة الى درجة تؤرأشد التأثير في حياتهم المستقبلية . وربما كان الطفل مدفوعا الى السرقة بعامل طبيعي لا سلطان له عليه ، كما حصل في حالة الطفل الذي كانت تتحصر كل سرقة في أصناف الحلوى ، فكان يسطور على جيوب زملائه فيسرق منها الحلوى ، واشتد به الأمر فكان يضع الخطط المحككة لسرقتها من "كنتين" المدرسة ، ولما تبادى في ذلك وافتضح أمره ، جرى به الى العيادة السكولوجية وانضح بعد الفحص الطبي أن الغدد التي تقوم بإفراز المادة السكرية في الجسم لا تقوم بعملها على الوجه الأكل . ولذلك كان الطفل مضطرا لأكل الحلوى بكثرة ليمسد ذلك النقص في إفراز الغدد . وكان العلاج لهذا الطفل أن عولجت هذه الغدد وبعدها امتنع بتاتا عن هذه العادة .

ومن الأطفال من يبدأ السرقة بحس نبض أمه ، فيقول لها مثلا : إنه أخذ الشيء ، فلثاني من مكانه فتجرى الأم مذعورة لتجرى الخبر ولكنها تجد الشيء في مكانه لم يمس ، فيضحك الطفل منها ، والخطوة الثانية ، هي أن يأخذ الشيء فعلا ويخبرها به ، فإن أظهرت اهتماما عظيما بالأمر عاد مسرعا فوضع الشيء في مكانه وإن لم يظهر عليها الاهتمام فالشيء له ، والخطوة الثالثة طبعاً ، هي أن يأخذ الشيء ولا يخبرها به ، وإذا سئل فإنه ينكر كل علم بأمره .

ودور البلوغ من أخطر المراحل التي يمر بها الشاب أو الفتاة ، لأنه دور انقلاب حاد ، لا في الحالة الجسمية فقط ، بل في الحالة النفسية والعقلية والاجتماعية ، فالشاب في هذه المرحلة عنده الاستعداد الكافي للاستهواء ، لا يدري أين مركزه من المجتمع ، تجذبه المثريات والمغامرات ، ويكون ميالا إلى الاختلاط بالجماعات ، وكم من شبان فقدوا مستقبلهم وأصبحوا من المتشردين وأصحاب السوابق في نظر العرف والقانون ، نتيجة لهذا الدافع القوي والاختلاط بأقران السوء . ويظهر أثر ذلك وصحابين الشباب الذين هم بطبعهم ضعيفو الإرادة سريعو الاقياد ، فإنهم يندفعون محاراة لوسط الذين هم فيه .

أعرف أسرة لديها ثلاثة أولاد . مروا في مراحل التعليم الابتدائي بحالة طبيعية ، ولكن بعد انتقالهم إلى المرحلة الثانوية شد الأوساط منهم ، وأصبحت أفعاله وأقواله تناقض بيئته التي تربي فيها ، وتخاف ما تعودته الناس من أدبه وكياسته ، وأصبح لا يحترم أحدا ولا يهاب شيئا ، فيكسر ويخرب كل ما يقف أمامه ، وزاد عنده البلشع وحب الأثرة ، فصار يعتصب كل ما تقع عليه يده من ممتلكات غيره ، وإذا ضاقت سبل الاعتصاب لجأ إلى جيب والده فيسرق منه ما يكفيه لسد نفقاته التي تسكثرت ، وديونه التي تراكمت وتمددت سرقاته ، وتناولت يده حتى وصلت إلى أدوات المطبخ ، فصار يربها ويبيعها ، ولها تنفع في سد ركن من نفقاته . وكثر تنبيهه عن المدرسة وقل اكترائه بمواعيد المنزل ونظامه ، وعلى العموم فإنه صار في حالة تهدد كل ما بقى فيه من فضيلة ، وعند البحث في حالة هذا الشاب . وجد أنه مختلط بيئة سيئة لأغراض جنسية ويلتف حوله كثير من إخوان السوء

من دخلوا معه دور البلوغ أو ناهزوه قليلا وقد اتفقوا جميعا في الآراء والأغراض وأصبحوا يزنيون له أعمامه بما يلائم نواياهم، ويمهدون له سبيل الغواية بما يعود عليهم بالرجوع ويعود عليه بالخسارة، ويشجعونه على التماذى في السرقة ليدفعوا ثمن ما هم مندفعون إليه من عريضة وتبدير، وقد كان الملاح في هذه الحالة أن ارتفع الشاب من هذه البيئة الخطرة، وأبعد عن هؤلاء الإخوان الشياطين، وأدخل في مدرسة بعيدة، بالقسم الداخلي، وأهتمت المدرسة ظروفه الخاصة حتى تضعه تحت الرقابة الدقيقة والإرشاد المستمر، ورتب له جدول أعمال مملوء بالمغامرات الرياضية وأغرى على الاشتراك في الكشافة والمعسكرات، والرحلات والمباريات، وجعل رئيسا في بعض أوجه النشاط حتى يشعر بالمسئولية المنقاة على عاتقه، وقد لوحظ عليه بعد ذلك تغيير واضح في كل أعماله وحركاته وأصبح من قادة الرأي في الحياة الاجتماعية بمدرسته وسرعان ما تغلبت عليه الروح الطيبة وأصبح من أحسن الشبان.

وكما يتدفع الفتى في دور البلوغ إلى جلب كل ما يملك وما لا يملك للفتاة التي يهواها، كذلك تندفع الفتاة بمحب الظهور إلى تجميل نفسها بكل ضروب الزينة كي تروق في أعين الشبان الناظرين، فإذا لم تسعفها مقدرتها المادية، فربما اضطرت إلى السرقة، كي تحفظ لنفسها حق التفوق في الجمال على أمثالها، وقد حصل ذلك مع الفتاة "ب" التي كانت متوسطة الحال، ولكنها كانت ذات ولع شديد بمحب الظهور، وكانت تطمح إلى أنخر الملابس وأغلاها ثمنا، وقد كان تقدمها في السن دافعا لها على التماذى في هذه الخطوة. ولم تصل إلى سن السادسة عشرة، حتى اتسع نطاق سرقتها وامتدت يدها إلى المبالغ الجسيمة فاهتمت أحيانا بسرقة مائة جنيه من عمها الذي كانت تعيش معه طول هذه السنين، وكبر ذلك على العم، فاضطر في نوبة عصبية إلى إبلاغ النيابة عنها، وقد اتضح من بحث الحالة أن سرقة الفتاة لم تكن تتعدى في الأصل الملابس وأدوات الزينة، وكان لها في ذات سوابق عدة، ولما اشتط بها الحال، اضطرت إلى سرقة بقود كي تشبع هذه الرغبة المتأججة، وكان دفاعها عن نفسها، أنها ترى الأغنياء يلبسون هذه الملابس الفاخرة وهي وأمثالها محرومة منها!

من ذلك نرى أن من الصعب جدا تحديد علاج معين لحالات السرقة المختلفة، إذ أن العوامل التي تسببها كثيرة، والدوافع التي تدفع إليها لا يمكن حصرها، ولكن يجب أن نجث في كل حال على حدة، ونحصر همتنا في معرفة السبب ثم نوجه غايتنا إلى تلافيه، وفي هذه الحالة يكون الطفل المريض الذي يبدأ انطيم بنحسه ومعرفة ما يشكو منه، ثم يصغ له الدواء الملائم، أما طرق العلاج الباشمة كالضرب والحبس والحرق والتعذيب فهي طرق عديمة الفائدة وضررها أكثر من نفعها، وخير لنا أن نسقطها من حسابنا إذا أردنا خيرا بأطفالنا.